Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يُغْنى الغناء التام، فشرحوها بدورها فيما سموه بالحواشى. ثم خلف علماء أجلاء، فرأوا أن يضيفوا بعض تعليقات إلى عمل أصحاب الحواشى، فكتبوا تقارير ضمنّوها ملاحظاتهم على المتون وشروحها وحواشيها المختلفة.

ومَنْ يقرأ الحواشى والشروح والتقارير يعرف أنها تحولت بكل علم إلى ما يشبه دائرة معارف واسعة فيه، فليس هناك رأى لعالم فى مسألة من مسائل علم منذ وجد على صفحة التاريخ إلا ويدوَّن ويسجل فى وضوح تام، سواء أكان ذلك فى المصنفات الخاصة بالعلم، أو كان فى مصنفات لعلوم أخرى تتناول شيئًا من مباحثه. ونضرب مثلاً لذلك علوم البلاغة، فلها مصنفاتها الخاصة التى تساق فيها آراء مؤلفيها، ومباحث منها تتداخل فى كتب النقد الأدبى، وأخرى تتداخل فى كتب علم الأصول أو فى كتب التفسير. وكل هذه الكتب والمصنفات يسوِّى منها الشارح لمتن من متون البلاغة التى أُلِّفت فى العصور المتأخرة دائرة معارف كبرى للآراء البلاغية على مر العصور.

ومعنى ذلك أن الشروح والحواشى والتقارير التى تزخر بها المكتبة العربية هى فى واقعها دراسات علمية تاريخية للعلوم التى تعرضها، دراسات يَحْنى لها الباحثون المعاصرون رءوسهم لدقتها وتعمقها ومخالطة مؤلفيها لأسلافهم مخالطة علمية نادرة. وإنى لأزعم أن أحدًا منا لا يستطيع أن يؤلف كتابًا تاريخيًّا لعلم من علوم العربية والشريعة الإسلامية دون أن يتوفّر على قراءة متونه وشروحه وحواشيه المتأخرة لإكباب أصحابها على قراءة مصنفاته المتعاقبة قراءة مكررة فاحصة ممتحنة أدق ما يكون الامتحان والفحص، فهم يتقنون ما يقرءون فهمًا وتحليلاً وتأويلاً، وهم ينقدونه ويصححونه ويضيفون إليه كثيرًا من تحليلاتهم وآرائهم. وأضرب مثلاً لذلك شروح متن التلخيص لعلوم البلاغة، فإن السبكى يذكر فى مقدمة شرحه لهذا المتن – كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع – أنه رجع إلى نحو ثلاثمائة كتاب، ومن يستمر فى قراءة شرحه يجد تحت بصره فيه جميع الآراء التى دُوِّنت فى علوم البلاغة سواء فى كتبها الخاصة أو الكتب الفرعية المتصلة بها. ومعروف أن القدماء وبعض المحدثين اضطربوا اضطرابًا شديدًا فى فهم الآراء